# سورة النحل والتوجيه إلى البناء وحراسته.. من خلال التنديد بأمور الجاهلية

« ١ »

كل ما جاء في كتاب الله خير وهداية ونور، وحين تعزم الأمة عزمها على أن يتحقق لها ذلك على كل صعيد وفي كل ميدان، فما عليها إلا أن تجدد الصلة بهذا الكتاب الكريم، وأعني بها صلة التدبر والتذكُّر اللذين يُسلمان إلى العمل والتطبيق، ومن دلائل الصدق في ذلك أن يمتدَّ تجديد الصلة بالتنزيل الحكيم إلى بيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

أقول هذا وقد أسعدنا من قريب عطاء المعلم القرآني في تبين الحكم على ما كان يأتي به الجاهليون من أعمال عمدية يسيؤون بها إلى أنفسهم وإلى مجتمعهم، سواء أكان ذلك على صعيد الأسرة والقبيلة أم كان على صعيد المجتمع.. وكان ذلك من خلال واحدة من طاقة مباركة من آيات سورة الأنعام التي استضأنا بهداها في رحلة عجلى سبقت، والآية الكريمة هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

والحق أن هذا الذي تتكره الكلمات الهاديات من فعل الجاهلية تنكره؛ لأنه يخالف تمام المخالفة ما أراده الله تبارك وتعالى لعباده من أن يأكلوا من طيّبات ما رزقهم سبحانه، وأن يتعاملوا مع النعمة وفق الذي أحلّه لهم وحرّم، لا أن يولوا ظهورهم لما أراد المنعم الرازق ويبتدعوا من عند أنفسهم أحكاماً هي الضلال المبين، فيقولوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام، مُدّعين زوراً وبهتاناً أن تلك الأحكام من عند الله!!.

وإذا تحرك العباد في هذا الإطار: استطاعوا أن يستمتعوا بالخيرات والنعم التي رزقهم الله وسخر لهم منها في كونه العريض ما سخر، وأن يُجمعوا أمرهم على البناء الذي يشيع الخير والنماء في ميادين المجتمع كلها.. يصحب ذلك طمأنينة عميقة عند الإنسان، وود يظلل الخطا في تعامل الناس بعضهم مع بعض، مما يقدرهم على تنمية وجودهم الذاتي وأن يكونوا دائماً على طريق التغيير إلى ما هو الأفضل مرحلة بعد مرحلة. ولن يكون ذلك ـ بشموله وعمقه ـ إلا في ظل الإيمان الصادق الذي يدفع إلى العلم والعمل والسلوك المستقيم.

ولنقرأ ما جاء في سورة مكية هي سورة النحل مما يبدو معلماً واضحاً من معالم المسيرة الخيرة التي قادها على هدي كلمة التوحيد محمد عليه الصلاة والسلام. يقول الله جلّت حكمته: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

لقد أدرك المؤمنون من خلال تلك الآيات وأمثالها من نصوص الهداية التي تفنِّد مزاعم المشركين، وتكشف عن عوامل الهدم التي يمارسونها في ظل جاهلية جهلاء.. أدركوا أيَّ سبيل مستقيمة دانية القطوف، عليهم أن يسلكوها ـ وهم المؤتمنون على متابعة الرحلة في إحكام البناء..

إنها السبيل التي تبدأ بالإيمان الذي لا تخالطه ريبة، وطاعة لله ورسوله، في كل ما يكون من تحليل أو تحريم أو ما يتعلق بهما، وذروة السنام في ذلك: الجهادُ في سبيل الله مصحوباً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ناهيك عن الأخذ بالأسباب وفق السنن الألهية..

أجل.. وتنتهي بجنة عرضها السماوات والأرض ورضوان من الله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

# النهج البناء... وحراسة بنى المجتمع.. وسورة النحل

« ٢ »

قادتنا الآية الأربعون بعد المائة من سورة الأنعام وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾. قادتنا هذه الآية الكريمة وهي تنبه إلى ما وقع فيه المشركون من خسران في الدنيا والآخرة بسبب من سوء فعالهم وأنهم ضلوا وما كانوا مهتدين، إلى ما جاء في سورة النحل بدءاً من الآية الرابعة عشرة بعد المائة من قول الله تباركت أسماؤه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

والحق أنه لم يكن مصادفة أن تقودنا الآية المشار إليها من سورة الأنعام إلى هذه الآيات من سورة النحل؛ ذلك بأن المشركين كانوا خاسرين في الدنيا في أولادهم وفي أرزاقهم بما جنته أيديهم، وكانوا خاسرين في الآخرة بما افتروا على الله الكذب من أن تلك الأحكام الجائرة التي أودت بهم إلى الخسران في المال والولد: هي أحكام من عند الله، وحاشا لله أن يشرع ما فيه الإيذاء لعباده، وهو البر الكريم، والرؤف الرحيم.

وصفوة القول: أن قوله تعالى:﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

صورة ـ بيِّنة التأثير تبهر الناظرين ـ عن جنوح المشركين عامدين إلى مسلك هدام يحمل المخالفة كل المخالفة لما شرع الله لعباده من نهج بنّاء يستمتعون من خلاله بما رزقهم الله من الطيبات، فلا يحلون إلا ما أحل الله، ولا يحرمون إلا ما حرّم سبحانه، وبذلك لا يقعون في الجناية لا على أموالهم ولا على أولادهم، ولا يستجيزون ظلم أحد من الناس.. إن الله الذي خلق العباد سخر لهم من أبواب الخير ما سخّر، ويسّر لهم من أمر الرزق ما يسَّر، ووجّههم إلى أن يتعاملوا مع النعم والأرزاق تعاملاً سليماً في ظل ما شرع وبيّن.. لكن الجاهليين عدلوا عن ذلك، فخالفوا عن أمر الله، وشرعوا من عند أنفسهم ما سبب لهم الخسارة في الدنيا مالاً وولداً ثم خسروا الآخرة بافترائهم وكذبهم على الله..

إن آيات سورة النحل ـ ولها نظائر كثيرة في كتاب الله ـ تعرض النهج الذي أراد الله لعباده أن يسلكوه، كما تكشف عن النهج المخالف وعقابيله في الدنيا والآخرة ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ مباح لكم أن تأكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً على السنن الذي أراده وتفضل به عليكم، واشكروا نعمة الله فيما أباح لكم من هذا الحلال الطيب، بأن تستخدموا نعمه في طاعته، لا أن تضعوها على طريق الجحود والضلال.

أجل أن تستعينوا بها ـ وقد أنزل عليكم كتاباً فيه ذكركم ـ على بناء الإنسان المؤمن القادر على بناء المجتمع المتكامل المتعاون، المجتمع الذي يستمتع بالنعمة ولا يجحد خالق النعمة، وينمي خيراته وقدرته على العطاء في الميادين كلها، على هدي ما شرع الله وأراد. وذلك مقتضى العبودية لله تعالى﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

ثم بين سبحانه ما حرمه عليهم وما هو جائز عند الضرورة بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾. فالحرام ما حرم الله لا ما ابتدع الجاهليون من عند أنفسهم

وما سولت لهم الشياطين، وهذا الذي حرّمه الله ينتفي معه الحرج، يكشف عن ذلك ما نرى من جواز الأكل عند الاضطرار الحقيقي ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. تلكم هي سبيل الله لعباده التي تتيح لهم الإفادة مما سخر لهم وأنعم عليهم، وتباعد بينهم وبين الكفران الذي لا يحصد الفرد والجماعة من ورائه إلا الهدم والخراب..

أما البناء والنماء: فكائنان في التزام ما شرعه الحكيم الرزاق سبحانه، حيث الخطوة الواعية أبداً على طريق منهجية مأمونة تضمن أن يظلَّ المجتمع في ترق إلى ما هو الأفضل والأقوم في ميزان الله الذي لا يعول والله يتولى عباده الصالحين، ويجزي أولياءه الشاكرين الصابرين.

# مرة أخرى مع النهج البناء وسورة النحل

## «٣»

قطعنا في الماضي القريب شوطاً من رحلة مباركة مع تلكم الآيات من سورة النحل التي قادتنا إليها الآية الأربعون بعد المئة من سورة الأنعام. وآيات سورة النحل المشار إليها هي قول الله جل ذكره: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ وهذا ـ كما أشرنا فيما من القول ـ يضع أيدينا على النهج البناء الذي أراده الله لعباده في تعاملهم مع الرزق الذي أنعم به عليهم، بحيث يستمتعون بنعمه جل شأنه ويحسنون شكرها؛ وذلك باستخدامها في طاعته وفي تنمية قدرتهم على تحقيق ما يريد على ساحة الفرد والمجتمع.. ولكن كلمات الله كشفت عن أن المشركين من العصر الجاهلي خالفوا عن أمر الله في ذلك، فوقعوا في حمأة التناقض، وجرُّوا على أنفسهم وعلى مجتمعهم الخسران الوبيل في الدنيا والآخرة.. ولنعد إلى تتمة تلكم الآيات المباركات. ذلكم ما نرى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

أن تقع الخطيئة ويُعلم أنها خطيئة من صنع الإنسان: أمر سيء بلا ريب، ولكن الأسوأ منه محاولة تسويغ تلك الخطيئة بأنها حكم من أحكام الله، فلو أن الجاهلين وقفوا عند تلكم الجنايات من تحليل وتحريم من عند أنفسهم، بحيث يعلم أنهم هم الجناة ويفتح الطريق للمتبصرين أن يقولوا كلمة الحق في ذلك: لكان الخطب أقل خطورة.. ولكنهم أرادوا أن يسوغوا عدوانهم على النهج الذي أراد الله لعباده في تعاملهم مع النعم، والتزامهم لما يشرع الله في الحل والحرمة.. أرادوا أن يسوغوا ذلك

بنسبة انحرافهم في تلكم الأحكام إلى الله.. فهم يضيقون على أنفسهم بتحريم أنواع من الرزق، ويفرقون بين الذكر والأنثى في التعامل، ويُقدم البعض على قتل أولادهم لأسباب لا تجدي فتيلاً.. خضوعاً لتسويلات شركائهم من الشياطين.. ثم يجاهرون بأن ما يصنعونه تحريماً وتحليلاً هو من عند الله.. تماماً كالذي نراه في جاهلية اليوم.. يعمل الهدامون ما يعملون، ثم يطلعون على الناس بمنهج فكري يهيِّئ العقول والنفوس لقبول الهدم، وشيئاً فشيئاً يصبح الهدم هو البناء، وهو الذي ينبغي أن يكون..

إن توظيف الفكر على ساحة التسويغ للانحراف والتسلل إلى العقول كيما تقتنع بأن المنكر هو المعروف، وأن الهدم هو البناء، كل أولئك من ضلالات الجاهلية التي شاء ربنا تبارك وتعالى أن تتنبَّه إليها الفئة المؤمنة وهي تأخذ طريقها إلى بناء قويم يسلم للإنسان في ظله تكامل البنية الفكرية والسلوكية كما يسلم للمجتمع في ظله كذلك؛ أن يكون مجتمع الولاء الصادق لعقيدة التوحيد، تشيع في خلاياه جميعاً بواعث الحركة المنتجة والنشاط، وتجده وسمات النماء والخير المطرد: هي التي تطبع مسيرته على هدي المنهج الرباني الذي يوصل العمل به إلى التمكين في الدنيا ومرضاة الله في الآخرة.

وهكذا جاء النهي الجازم للجاهليين تعليماً للمؤمنين في كل عصر أن تفتح منهم الأبصار والبصائر، فلا تنطلي عليهم أحابيل الجاهلية وزخارفها، مهما ألبست تلك الزخارف والأحابيل ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ وفي مزيد من التنبه إلى عدم الاغترار بالمتاع القليل والربح العاجل على حساب الحقيقة الكبرى: جاء قوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾. ترى.. ألا يعني ذلك كله ــ والقرآن منبع الهداية على المدى.. ــ أن على المؤمنين، وهم يقطعون رحلة البناء، أن يتبصروا، وأن يحذروا.. أن يتبصروا مواقع خطوهم بوعي وثبات وصبر، ويحذروا من الوقوع في شيء مما هو من أوضار الجاهلية وشؤونها ــ ومن شؤون الجاهلية ما يردي ــ وأن يكونوا على تمام اليقظة لكيلا يؤخذوا بما تحتال به تلك الجاهلية من عناوين، وما تصنعه من محاضن فكرية تتسلل إلى العقول تسلل الداء منه إلى الجسم السليم ولله عاقبة الأمور.

# حراسة بُنى المجتمع على محور الهداية..
# في سورتي الأنعام والنحل

« ٤ »

محور الهداية العامة المحيطة في القرآن الكريم: قادنا ونحن نسعد بعطاء المعلم القرآني في الآية الأربعين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قول الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾. قادنا إلى مجموعة من الآيات في سورة مكية أخرى هي سورة النحل كان فيها قول الله جلت حكمته: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

ولقد دلنا المعلم القرآني من خلال تلكم الآيات على المنهج الذي رسم الله لعباده من إحسان تعاملهم مع ما سخر لهم من الكون ورزقهم من الطيبات، وهو النهج الذي يقوم على الاستمتاع المشروع بالنعم، والإفادة من الخيرات التي يسر الله سبلها على هدي ما أحلّ سبحانه وما حرّم، وأن يصحب ذلك شكر المنعم سبحانه وذلك بوضع تلك النعم موضعاً تكون فيه عوناً على طاعته وتحقيق ما فيه خير الفرد والجماعة، والسعادة في الدنيا ويوم الدين.. وهذا النهج بأكمله ــ ومنه الشكر الذي ألمحنا إليه ــ هو مقتضى العبودية الخالصة لله عز وجل ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ أما المخالفة عن هذا النهج ــ كما كان يفعل أهل الشرك في الجاهلية ــ فتتناقض مع دعوى الإيمان بالله، وسلوك للسبيل المعوجّة التي تعقب الخسران في الدنيا والآخرة..

والحق أن الناظر في الآيات المومى إليها في سورة النحل بدءاً من الآية الرابعة عشرة بعد المئة والتي أوردناها فيما سبق: يرى فيها تفصيلاً يعين على مزيد من التبين لما يهدي إليه قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾. وهي الآية التي أشرنا إليها في صدر هذا الحديث، والتي أعقبت مجموعة من الآيات المباركات في تلك السورة المكية، كانت أولاها كما جاء في ترتيب المصحف: قول الله تعالى في شأن المشركين وما تكسبه أيديهم من الجناية على الفرد والمجتمع في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

ونعود اليوم إلى سورة الأنعام نفسها كيما نتابع الرحلة المباركة المعطاء؛ فبعد الآيات التي كشفت عن عدد من عوامل الهدم عند المشركين بأسلوب ينير طريق المؤمنين البناة في كل عصر، فيجعلهم يجتنبون الانحراف وكل ما هو منه بسبيل.. بعد تلك الآيات يطالعنا فيما تلاها بعد ذلك ما يؤكد النهج الذي دلت عليه آيات سورة النحل المومى إليها آنفاً. والذي نعنيه من سورة الأنعام قول الله جل وعز بدءاً من الآية الحادية والأربعين بعد المائة: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ ولسوف نشهد فيما يأتي من القول إن شاءالله ــ ولو بعضاً من عطاء المعلم القرآني ــ في هاتين الآيتين الكريمتين وما يتلوهما في موضوعنا نفسه حيث التجلية المشرقة لما أراد الله لعباده من نهج سليم في تعاملهم مع ما أعطاهم من رزق وما تفضل به عليهم من نعمة، وهو النهج الذي يضمن لهم نماء الخير واطراد التمكين ويجعلهم، وهم يتقلبون في أنعمه ويضعونها على الطريق البانية المثمرة في طاعة الله سبحانه: يشكرون له ولا يكفرون، ويفوزون بما أعد لعباده الصالحين المتقين.

# عودة إلى سورة الأنعام..
# وسدُّ الذريعة في حراسة بُنى المجتمع

« ٥ »

في عودة إلى سورة الأنعام واصطحاب زمرة كريمة أخرى من آياتها تذكر الناس بما أنعم الله عليهم وهو الخالق القادر الرازق، وتفند مزاعم المشركين فيما أحلوا من عند أنفسهم وما حرموا مفترين على الله بنسبة ذلك إليه.. وتوضح النهج الذي يريد الله لعباده أن يسلكوه وهم يستمتعون بخيراته ورزقه ويتقلبون في أنعمه التي لا تحصى.. في عودة إلى هذه السورة المكية المباركة أوردنا بالأمس قولاً لله جل شأنه وذلك بدءاً من الآية الحادية والأربعين بعد المئة: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

إن الله الذي لم يخلق عباده عبثاً، بل أودع فيهم ما أهَّلهم لأن يبلغوا ــ أن لو استقاموا على الطريقة ــ بالإيمان يصحبه العمل الصالح بمفهومه الشامل: غاية عظيمة هي تحقيق العبودية الخالصة له جل شأنه.. فكذلك لم يدعه مهملاً بل سخَّر لهم الكون ورزقهم من الطيبات، وأراد لهم أن يحسنوا التعامل مع ما سَخّر لهم ورزقهم من أنعمه وفضله، فيكونوا مع الذي أراد سبحانه فيما أحلَّ وفيما حرَّم ؛ لأنه كما تعبَّدهم بالإيمان به: تعبَّدهم فيما شرع لهم.. وهذا ما يرتضيه العقل السليم، فضلاً عما يُمليه الإيمان بالله؛ فالذي خلق ورزق، وسخر وأنعم: هو الإله الجدير بأن يفرد بالعبادة، وأن يطاع فيما شرع وبين لعباده من أحكام.

والآيتان الكريمتان هنا شأنهما شأن ما يليهما، جاءتا في أعقاب ما سعدنا بصحبته في حلقات قريبات من تلكم الآيات التي كشفت عن عدد من الصور الجاهلية في تصرف المشركين على صعيد التعامل مع النعم وما رزقهم الله؛ فمن تحريم لبعض ما أحل الله، إلى ابتداع صور فيها ما فيها من الظلم على الصعيد الاجتماعي، والعدوان على البنية الاقتصادية للمجتمع، ناهيك عن ظلم المرأة ثم نسبة ذلك كله إلى الله افتراءً عليه. وكانت ـ من بعض الوجوه ـ انعكاساً للتمرغ في أوحال الوثنية ـ مع دعوى الإيمان بالله ـ وفي التقليد الأعمى والخضوع لتسويلات الشيطان في إبعاد للعقل السليم أن يقول كلمته، فيباعد بين أولئك المشركين وبين ما سلكوا من سبل أوقعتهم في التناقض وسوء الحكم على الأمور، وجرت عليهم وعلى مجتمعهم الخسارة في الدنيا، وباؤوا كذلك بالخسران المبين في الآخرة.

والذي تقتضيه سلامة الفكر والعمل: أن يكون الناس، وهم يكدحون في الأرض ويرتادون دروب الحياة... وقافين عند الذي أراد لهم خالقهم ورازقهم ربهم سبحانه؛ وذلكم هو المنهج السوي الذي يجعل من التعامل مع أصناف الرزق والموارد وما سخر الله للإنسان في الكون: عملية بناء يصلح معها أمر الفرد والجماعة.. ويعمُّ الخير والنماء نواحي المجتمع، الأمر الذي يجعله قادراً على العطاء مؤهلاً دائماً للرقي إلى ما هو الأفضل والأقوم. ذلك بأن كل طاقة من الطاقات التي أنعم الله بها قد وضعت في مكانها الطبيعي، فكانت الثمرة وكان النماء، يعقب ذلك كله الطمأنينة التي ينشئها الإيمان، فيتعاون الجميع على ما فيه مصلحة الفرد والجماعة.

وفي عودة إلى الآيتين الكريمتين نجد تذكيراً بالنعم التي خلقها الله وأنشأها، وما الذي يجب على الإنسان حيالها ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ وتختم الآية بأمور ثلاثة غاية في الأهمية: أولها: إباحة الاستمتاع بالنعم وفق ما أراد سبحانه: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ الثاني: أداء

الحقوق التي جعلها الله في المال ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ الثالث: النهي عن الإسراف وتوعد المسرفين ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أرأيت إلى هذا النهج الذي أراد الله لعباده ـ كما تشير هذه الآية وغيرها كثير ـ.. إنه النهج الذي لو أحسن الناس سلوكه والعمل بما يقتضيه: لعَمَّ الخير وانتفى الظلم الاجتماعي، وتعاظمت القدرة الاقتصادية، وتحقق للإنسان ما ينشد من كرامة وطمأنينة. على هدى الإيمان الصادق وطاعة الله فيما تعبَّد به عباده، وشرع لهم من ذلك النهج المبارك السوي والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

# سورة الأنعام.. ونهج التعامل البناء مع الفهم

«٦»

الآية التي وقفنا المعلم القرآني من قريب على بعض من عطائها فيما هو من سمات النهج الذي ارتضاه الله لعباده في تعاملهم مع ما أسبغ عليهم من النعم، وما هيأ لهم من الرزق، وسخر لهم في كونه العريض براً وبحراً وجواً.. هذه الآية الكريمة هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ وهي الحادية والأربعون بعد المئة من سورة الأنعام.

وقد كان من إشراق المعلم القرآني ما هدت إليه الآية من التذكير بهذه المجموعة من النعم التي هي ـ على تنوعها وتعدد أشكالها واختلاف الأُكل ومنابع الخير فيها ـ من صنعه سبحانه وإنشائه ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ إنها حقيقة يُسلم استقرارها في العقول والقلوب إلى كثير من الخير والالتزام بما تعبّد الله عباده من نهج التعامل مع الذي أنشأ هو بقدرته وأوجد.

فهنالك جنات معروشات وغير معروشات، وهنالك النخل والزرع مختلف الأكل، والزيتون والرمان المتشابه وغير المتشابه، وسل العلماء أهل الاختصاص عما يحمل كل صنف مما ذكر في الآيات الدالة أصرح دلالة على قدرة الخالق العليم وحكمته.

ومن خلال الوجهة البناءة التي يهدي إليها المنهج الرباني: أود التذكير بما أشرت إليه فيما سبق من الأمور الثلاثة التي ختمت بها الآية الكريمة وهي ضوابط غاية في الدقة والإحكام تشمل الفرد والجماعة وبنيان المجتمع في جانبيه الاقتصادي والاجتماعي.

تلك الأمور والضوابط هي: إباحة الانتفاع بتلك النعم والاستمتاع بخيراتها، أداءُ الحقوق التي جعلها الله في المال ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ تجنبُ السرف لأن السرف مضيعة للمال مهلكة لصاحبه من الناحيتين السلوكية والاقتصادية، وعنوان أذية للمجتمع؛ لذا فإن الله لا يحب المسرفين. ذلكم قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ والوعيد على السرف هنا يحمله هذا الإعلان الذي يرهبه المؤمن، وهو عدم محبة الله للمسرفين ـ كما أشرنا آنفاً ـ، وجاء ذلك مقترناً بالدعوة إلى أداء الحقوق التي أوجبها الله في المال؛ فمن غير المقبول بحال من الأحوال أن يهمَل أصحاب الحقوق ويزلزل كيان المجتمع بانحسار التكافل الاجتماعي والاقتصادي عنه.. وبدل أداء الحق المعلوم: يسرف صاحب المال ويبعثر الثروة هنا وهناك. ويبدو ـ والله أعلم ـ أن هذا الاقتران بين الأمر بأداء الحقوق في المال وبين النهي عن السرف: جاء للإشعار بأن الإسراف في المال والتبذير فيه طريق إلى حرمان أصحاب تلك الحقوق. وهذا ما لا يرضى عنه الله سبحانه وتعالى.

ولعل من الوفاء لأهمية هذه المقولة على طريق البناء السوي والإنماء الذي يصنعه ـ بإذن الله ـ تكافل أبناء المجتمع وتعاونهم على الخير.. لعل من الوفاء لهذه المقولة أن نذكّر بما جاء في سورة الإسراء من اقتران على صورة قد تكون أكثر تفصيلاً، بين الحث على أداء الحقوق في المال، وبين النهي عن التبذير، والتنديد بالمبذرين بأنهم إخوان الشياطين.

ذلكم قول الله جل شأنه في الآيتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾.

فالذين يبذرون ويبعثرون: هم إخوان الشياطين. وإذا كان الشيطان كفوراً لربه فإخوانه المبذرون كذلك، ومن الكفران قبض الأيدي عن أداء الحقوق التي أوجبها الله في المال. ولقد يتضح ذلك أكثر وأكثر إذا كان المؤمن ـ وهو يجدُّ ويكدح ـ على ذُكر من أن المال مالُ الله وأن العباد مستخلفون فيه ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]. ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣].

إن هذه اللبنة من لبنات المنهج الرباني في البناء جديرة بمفردها، أن توقظ الغافلين وتثير همم المتقاعسين، حيث ترقى بهؤلاء وأولئك إلى أخذ ذلك المنهج المبارك الزاخر بالعطاء، نعم إلى أخذه بقوة أخذٍ يشعر بالمسؤولية، لا على صعيد التصورفحسب، بل على صعيد التطبيق الذي يشمل ـ فيما يشمل ـ بناء الحياة على مختلف الأصعدة كما أراد بنا تبارك وتعالى، وكما قاد رحلة البناء والإنماء على هداه محمد عليه الصلاة والسلام ومن معه عليهم الرضوان، ثم من تبعهم بإحسان على مر العصور والأزمان؟.

# البناء.. وحراسة بُنى المجتمع وآيات من سورة الأنعام

«٧»

نتابع اليوم اصطحاب المعلم القرآني في بعض من آيات سورة الأنعام وعطائه فيها، على صعيد النهج المبارك البناء الذي وجه الله إليه العباد في ممارستهم الانتفاع بما أفاض عليهم من الرزق، وما أسبغ عليهم من النعم الظاهرة والباطنة.. فبعد قوله تعالى في ختام الآية الحادية والأربعين بعد المئة من السورة المشار إليها: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قال جل شأنه: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

كان الحديث في الآية السابقة عن الزروع والثمار وفي هذه الآية ـ كما نرى ـ حديث عن بعض النعم في الأنعام. وواضح في ذلك كله التذكير بأن الله هو الذي أنشأ تلك الألوان من الأنعم وأباح لعباده الانتفاع بها ليأكلوا من طيبات ما رزقهم منها، وقد هيأ لهم سبل ذلك ودلهم على النهج الذي يصون الحقوق وينمي الثروة، ويجعل من تلك النعم طاقة لها ـ حين تسيَّر في قنواتها الطبيعية ـ الأثر الكبير في بنيان المجتمع من جانبيه الاقتصادي والاجتماعي، كما يكون الاستمتاع بها على الوجه المطلوب بعيداً عن السرف والتبذير، مع أداء الحقوق الواجبة في المال لأصحابها، عنوانَ استقامة العبد في امتثال أمر الله الرازق المنعم ونهيه، ووقوفه عند الذي يمليه الشكر له سبحانه؛ لأن ذلك مقتضى العبودية الخالصة لله عز وجل.

وهكذا يدور الحديث في هذه الآية الكريمة على التذكير بنعم أخرى مما أنشأ الله للناس، وهي الأنعام، والدعوة إلى الانتفاع بها وفق ما شرع الرازق الرحمن، والنهي عن اتباع خطوات الشيطان في ذلك لأن الشيطان للإنسان عدو مبين.

﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

فكما أنشأ ـ جلت قدرته ـ جنات معروشات وغير معروشات، والنخل والزرع مختلفاً أكله، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه.. أنشأ من الأنعام حمولة صالحة للحمل عليها كالإبل الكبار والخيل وغيرها، وفَرشاً لا تصلح للحمل عليها كالإبل الصغار والغنم، وسميت فَرشاً ـ كما يرى الإمام الطبري ـ لدنوها من الأرض، فهي إشارة إلى نماذج من تلك النعم ـ على هذا القول ـ وليست استقصاء. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، الحمولة: ما تركبون، والفرش ما تأكلون وتحلبُون. وشاة لا تحمل: تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً.

ومهما يكن من أمر: فإن ما تزخر به الآية مما ذُكر: واضح الدلالة في التنبيه على إنشاء الله لتلك الألوان من الرزق المنعَم به على العباد، والتوجيه إلى النهج السليم في الانتفاع بها. ومن الجدير بالذكر أن ننبه على أهمية ما جاء من النهي عن اتباع خطوات الشيطان، مقترناً بالأمر بالأكل الذي هو للإباحة ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾. أمر للإباحة مقترن بتأكيد أن الرازق هو الله كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[الملك: ١٥].

وإذا ذكر الإنسان وهو يكد ويكدح في طلب الرزق ويجمع المال ويحرز الثراء: أن الرزاق هو الله تعالى، كان ذلك أدعى للارتفاع إلى المستوى اليقظ في سلوك النهج الذي أراده الله وشرع لعباده أن يسلكوه وهم يستمتعون بما رزقهم وينتفعون بتلك الأصناف من النعم، ومن هنا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فنسيان تلك الحقيقة حقيقة أن الله هو الرازق وهو الجدير أن يفرد بالعبادة وأن يُتمثَّلَ أمره ويجتنب نهيه في كل ما شرع وأحكم. نسيان مهلك يوقع في

حبائل الشيطان والهوى فيشيع الإسراف والتبذير، ويقع التظالم، فلا تؤدى الحقوق، ويبتدع المنحرفون من عند أنفسهم أحكاماً في التحليل والتحريم ليست من دين الله في شيء كما صنع أهل الجاهلية المشركون.

إن هذا التوجيه الرباني توجيه إلى إنشاء الواقع المبرأ من تلك الانحرافات في كل زمان، وتثبيتٌ للقيم التي تحفز إلى العمل الخير من داخل النفس وتنمية، الموارد الاقتصادية على النمط الذي يتحقق فيه نماء الثروة والتكافلُ الاجتماعي في ظل العبودية الخالصة لله.

# البناء.. والمنهج العملي في التعامل مع النعم بدءاً من العهد المكي

«٨»

ما جاء في الآيتين الحادية والأربعين بعد المئة وتاليتها من سورة الأنعام قبسٌ من ضياء المنهج الرباني في البناء، وهو المنهج الكريم الذي تبدى إشراقه منذ أول يوم في العهد المكي.. فكان من مقتضيات البناء الذي يتناول الإنسان والمجتمع والأمة.. أن يبدأ بكشف النقاب عن عوامل الهدم في تلك الأوضاع الجاهلية ــ على قاعدة التخلية قبل التحلية ــ كيما يزاح ركامها المؤذي من طريق البناة العاملين. ومن خلال ذلك كان يتبدى ما ينبغي الأخذ به؛ وما ينبغي اجتنابه في عملية البناء الكبرى التي بدأت تباشيرها في وقت مبكر من عمر الدعوة.

والآيتان المشار إليهما هما قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

والحق أن هذا التذكير بالنعم، والمنعم سبحانه، والتوجيه إلى الطريق البديلة لما كان عليه الجاهليون، مما أشارت إليه آيات كريمات صحبناها في كلام سلف.. الحق أن هذا التذكير وفقاً لخطوات المنهج الرباني في البناء والتحضير له منذ العهد المكي: قد تعددت نماذجه في مواطن من الذكر الحكيم. نقرأ في ذلك مثلاً ما جاء في سورة النحل ــ وهي سورة مكية ــ من قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

على هدي هذه الحقيقة نتابع الرحلة مع المعلم القرآني وقد سبق أن وقفنا على بعض من عطاء قوله تعالى في الآية الثانية والأربعين بعد المئة من سورة الأنعام وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾. إذ إن ما جاء في هذه الآية بإجمال وما قاله العلماء بشأن الحمولة والفرش: يقودنا إلى آيات أخر تحمل شيئاً من التفصيل من الخير أن ننظر فيه. وعلى سبيل المثال لا الحصر: ها نحن أولاء نقرأ في سورة النحل قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾. وفي سورة المؤمنون وهي ــ كما نعلم ــ سورة مكية نقرأ قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢١ ــ ٢٢]. وتطالعنا سورة يس بقول الله جلت حكمته: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

إنها الدلالة على النهج الذي ما بد من سلوكه في التعامل مع النعم، سواء ما ذكر منها في القرآن بتفصيل، أو ما يندرج منها تحت التسخير، مما يصل إليه العلم يوماً بعد يوم، وهو نهج يجمع إلى الانتفاع بالنعيم ــ عملاً بإباحة الله لها ــ: شكر الخالق بتسيير تلك النعم مسارها الطبيعي، وأداء ما يجب فيها من حقوق بعيداً عن السرف والتبذير. والواجب من وراء ذلك كله ــ وهذا على صعيد المجتمع الكبير ــ وضع ما تعطى هذه النعم من قدرات اقتصادية على طريق يضمن رفاه المجتمع وقدرته على العطاء في ظل شريعة الله، كما يضمن القوة الذاتية للأمة وهي القوة التي أمر الله بإعدادها للجهاد في سبيل الله الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، وهو ماضٍ إلى يوم المعاد.

# البناء.. وأهمية التوجه إلى الاعتبار، إعمال العقل في المنهج المستقيم

« ٩ »

يطيب لي أن أعود معكم اليوم إلى الاستنارة بمزيد من عطاء المعلم القرآني في دلالته على النهج الذي وُجِّه العباد إلى سلوكه وهم يأكلون من طيبات ما رزقهم الله، ويستمتعون بما أودع في الكون من خيرات، وما يسَّر لهم من سبل الانتفاع بها، وأعطاهم مفاتيح ذلك حين أهَّلَ الإنسان بالوسائل المطلوبة، وخلقه في أحسن تقويم.

وقَوام النهج المشار إليه ــ كما دلت آيات الكتاب المبين التي رأينا بعضاً منها في سورتي الأنعام والنحل ــ أن يكون التعامل مع أنعم الله وفق ما شرع سبحانه، دونما عدوان على ساحة التحليل والتحريم، كما فعل أهل الشرك الجاهليون، ودونما نسيان لخالق تلك الأنعم الذي أنشأ ورزق وسخر للإنسان ما سخر في البر والبحر والجو كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾.

كل أولئك في ظل الشكر الذي تتحقق معه العبودية لله، وذلك بوضع النعمة موضعها أداء للحقوق، ومنعاً للظلم الاجتماعي، وتسييراً للطاقة الاقتصادية في قنوات منتجة تعود على الفرد والجماعة بالخير تحقيقاً للنمو، وتسهم في تقوية كيان المجتمع، والارتفاع به مرحلة بعد مرحلة إلى مستوى النماء المجدي والقدرة على العطاء.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل: ١١٤].

وكان آخرَ ما صحبنا من تلكم الآيات الآيتان الحادية والأربعون بعد المئة والآية التي تلتها وهما قول الله جل شأنه وتباركت أسماؤه:﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

ومما تجدر الإشارة إليه أن من لمحات الإعجاز في المنهج الرباني.. أن علاج أية مشكلة على طريق القضاء على عوامل الهدم، والتوجيه إلى البناء النافع كيف يكون.. يصحبه ـ في الأعم الأغلب ـ استثارة للعقل كيما يتجاوز الأسداد التي ضربت عليه، ويعمل عمله بالنظر فيما تطلق الجاهلية من أحكام جائرة ليس على واحد منها دليل، وتتنافى مع أبسط الحقائق بله الإيمان بالله الذي خلق وأنشأ ورزق سبحانه، وتعبَّد عباده بالنهج الذي عليهم أن يسلكوه وهم يمارسون الحياة من خلال رزقه وأنعمه.

ها نحن أولاء نقرأ بعد قوله تعالى في خاتمة الآية الثانية والأربعين بعد المئة من سورة الأنعام المشار إليها آنفاً ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ قوله جل وعز في مطالبة للجاهليين بإقامة الدليل على ما يزعمون من ألوان التحريم والتحليل: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

إن هذه التعرية لصنيع الجاهليين في التحريم والتحليل من عند أنفسهم، والكشفَ عن أن هذا الصنيع افتراء على الله الكذب: عارٍ عن الحجة والدليل، بعيدٌ عن العلم وحكم العقل السليم... إن هذه التعرية جديرة بأن يتعاظم معها يقين الذين يتحركون على ساحات البناء والإنماء: بوجوب الأخذ بالمنهج الرباني، علماً وتخطيطاً وتنفيذاً.

وهو أخذٌ ما أعظمه عنواناً على الوجهة التي تنمو معها القدرات البشرية والطاقات الفاعلة في ظل العقيدة التي تكرم الإنسان وتُحل العقل مكانه اللائق في فهم الوحي، وإعطاء السليم من الأحكام.

# سلامة بناء الفرد والمجتمع..
# والتكامل بين الدنيا والآخرة في المنهج الرباني

شهدنا في مناسبات قريبات بعضاً من عطاء المعلم القرآني في مجموعة مباركة من آيات سورتي الأنعام والنحل، حيث الدلالة على النهج الذي أراد الله لعباده أن يسلكوه، وهم يأكلون من طيبات ما رزقهم، ويتقلبون بأنعمه التي أنشأها بقدرته.. فيشكروه ولا يكفروه، ويلتزموا أحكامه فيما أحل وفيما حرّم، فلا يتجاوزوا ذلك ـ كما كان يفعل أهل الجاهلية ـ إلى ابتداع أحكام من عند أنفسهم لم يأذن بها جل شأنه ولم يرضها.. ثم زعمٍ أنها من عند الله افتراء على الله... وقد أوضحت الآياتُ المنوه بها والتي تنزلت في العهد المكي لتزيل الركام الجاهلي الذي أضر بالفرد والجماعة.. وسار بالمجتمع سيرة الضعف والانحلال... أوضحت تلك الآيات أن المخالفة عن ذلك النهج الذي أراده الله لعباده: طاعةٌ للشيطان واتباع لخطواته وهو العدو المبين للإنسان ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

كما أوضحت أن تلك المخالفة التي تحمل ـ فيما تحمل ـ افتراء الكذب على الله ـ تجر أصحابها إلى عدم الفلاح في الدنيا والآخرة، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

وأود أن أشير اليوم إلى أن امتثال أمر الله فيما شرع بشأن الاستمتاع بالطيبات التي رزق بها عباده، والانتفاع بما سخر لهم من خيرات وثروات.. كل أولئك يضمن لأهل الاستقامة على ذلك ـ وهو المتفضل سبحانه ـ أن تكون تلك الطيبات والنعم ـ بجانب ما أعطت من ثمرات البناء في الدنيا ـ خالصة لهم يوم القيامة فلا يشركُهم غيرهم في الجنة.

ها نحن أولاء نجد في التنزيل الحكيم ـ مكيِّه ومدنيِّه ـ آيات عدّة تبيح طيبات ما رزق الله وتدعو إلى الشكر والتزام النهج المستقيم في التعامل معها، من مثل قوله تعالى في سورة النحل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ وقوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾. وفي سورة مشرقة مباركة لتكامل المنهج الرباني الذي يُسلم المؤمنين الوقافين عند حدود الله إلى سعادة الدنيا والآخرة نقرأ قول الله جل وعز في الآية الثانية والثلاثين من سورة الأعراف: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

فزينةُ الله التي أخرج لعباده والطيبتُ من الرزق وإن شرك المؤمنين الاستمتاعَ بها الكافرون في الدنيا: فهي خاصة يوم القيامة بأولئك المؤمنين لا يشركهم فيها أحد من الكفار: فإن الجنة محرمة على الكافرين. إنه الشمول في المنهج الذي يتسع للدنيا والآخرة جميعاً.. وينشىء في نفوس المؤمنين من الحوافز التي تجعل منهم أولئك البناة الخيِّرين الذين لا يعيشون في عزلة عن الحياة. ولكن يبنونها بإيمان وعمل وطمأنينة، وفي الوقت نفسه لا يحيدون عن الجادة، بل تراهم والدنيا بالنسبة إليهم: مطية الآخرة، فلا إفراط ولا تفريط ولكن بناء للإنسان والمجتمع على النهج الذي يمكِّن للمؤمنين في الأرض ويتيح لهم نشر دعوة الحق والخير، ويسلم إلى الفوز بالجنة يوم الحساب.